كانت السماء كالحة

ديالى عشية الحرب

بعقوبة: المدى

كان كل شيء يخطو باصرار دؤوب نحو حرب واقعة لا محالة، فعام (2003) اطل بوجه محتقناً مجللا بالفزع والوجوم، وكنا نحن مثل مخلوقات (كافافي) في قصيدته الشهيرة (في انتظار البرابرة) بعد ان ضاقت بنا السبل. نستعد للعيد الدامي الذي لا بد ان يحل مع مجيء البرابرة.. البرابرة الذين كانوا، في رؤية كافافي، حلاً من الحلول.

كانت الاخبار تترى.. العالم كله مشغول بالحرب لتقبلة مظاهرات.. احتجاجات.. تأييد ورفض.. تحليلات وتوقعات. وصور لقوات القادمة من وراء البحار مع اسلحتها الرهيبة تتدفق على شاشات الفضائيات. ومئات من رجال السلام يدخلون العراق بنية حسنة، وآخرون يدخلونه بنية سيئة. اما العراقيون فوحدهم كانوا يتابعون المشهد بشيء من اللا مبالاة والتهكم، وكأن الامر لا يعنيهم، وكأنهم يترقبون حدثاً في خشبة مسرح، او في بلاد بعيدة سيرونها في نشرة اخبار التلفاز.

قال رجل: لقد مللنا.. مللنا.. لحرب، الضنكين. وليحدث ما يحدث!

قالت امرأة: البلول لا يخاف من المطر!

وعندما عصفت ريح آذار خيل اليهم انهم يسمعون دمدمة لحرب حقاً، وقد احسوا بايقاع طبولها يصعد من وحشة ارواحهم.

اذن، هو الدم شيشخب مرة اخرى في شعاب البلاد، وستزحف الايام التي هي بطعم الرماد ولونه ثقيلة فوق اجسادهم الكدودة.

في مقهى بعقوبة جلس ثلاثة رجال، يثق بعضهم ببعض، قال الأول هامساً: «هذه حرب من نوع آخر.. حرب اخيرة.

قال الثاني: «فضيلة لحرب لوحيدة هذه انها ستفتح لنا نفقاً آخر.. نفقاً لن تفتحه سوى حرب من هذا القبيل.

قال الثالث: ولكن كثر أمنا سيموتون!

رد الاول: مع الحرب، ومن دونها، نحن ميتون.

مشهد اول:

احتشد الصبية حول الذين راحوا يحفرون لخنادق الشقية في برد كانون الثاني حزناً مما يمتد امام الازقة وبين الاحياء.

.ماذا تفعلون؟

.لا عليكم.. ابتعدوا!

ولم يبتعدوا.. وتساءل بعض الناس ساخرين:

.هذه القبور لمن؟ وهل سيقاتلون الامريكان بين البيوت؟

اجاب كهل خبر الاعيب السياسة وارهاصات زمن الموت:

.لا.. هذه من اجل قتال العراقيين اذا ما انتفضوا خلال ايام الحرب.

كانت السيارات لحديثة من نوع سلبرتي وغيره تقف امام مقرات الفروع الحزبية.. اعضاء الفروع الذين تسلموا هداياهم هذه قبل اسابيع قليلة يجتمعون في الداخل.. لا شك انهم يناقشون القضية الامنية اولاً واخيراً.. الكيفية التي بها يشدون قبضتهم على مدن المحافظة، (احياء ها وازقتها وبيوتها)، والكيفية التي بها يعالجون الفقاعات اذا ما ظهرت (الفقاعة في مفهوم الحزب القائد هي اية محاولة شعبية مناوئة للنظام يمكن ان تظهر في الشارع ومعالجة الفقاعة تعني حصد لجميع بالرشاشات)!!.

تهديد ووعيد

على الرغم من ان ديالى ليست موقعاً استراتيجياً هاماً في هذه الحرب، وتها باستثناء ثمرات محدودة، ستبقى بعيدة عن نيران الصواريخ وقصف الطائرات، فإن الظاهر العسكرية باتت واضحة في الاسبوع الاخير، قبل الحرب، وتأكدت اكثر مع الانذار الشهير الذي وجهه جورج بوش لصدام في فجر الثلاثاء، بالتوقيت المحلي. الصادف 2003/3/18 ليغادر العراق، هو وعائلته في غضون ثمان واربعين ساعة.

تصاعدت حمى حفر الخنادق الشقية، وبدا التوتر جلياً في وجوه اعضاء البعث الذين ارتدوا الزيتوني وحملوا رشاشاتهم واحتلوا، لا مداخل المدينة ومخارجها فحسب، وانما مداخل الاحياء والازقة ومخارجها ايضاً، وجرى الكلام عن انزالات اميركية جوية محتملة، وعن جواسيس ادلاء جندتهم الـ (C I A) وتم اخلاء المعسكرات والمؤسسات الحساسة.

وقال شهود عيان انهم رأوا عشرات الاشخاص بملابس رثة ونحى طويلة مشيدين تموضعهم قوات الامن، من دائرة مديرية امن بعقوبة.. وتضعهم في حافلات تنطلق بهم الى المجهول.. قال سائق تاكسي:

.بدوا وكأنهم اخرجوا من زنزانات تحت الارض فوجوههم كانت شاحبة مصفرة زمن بعيد.

في هذه الاثناء عقدت القيادات العليا لحزب البعث في المحافظة مجموعة من الندوات الخاصة والعامة.. كانت النبرة العصبية ولغة التهديد والوعيد غالبة على خطاب تلك الندوات.

في تجمع بوق المدينة تحدث (عضو القيادة القطرية) عبد الباقي العدون، للمواطنين الذين ارغموا على الحضور، عن واجب الدفاع عن الوطن و (القائد) حتى النفس الاخير، وقال انه سيهدم بالشفلات كل بيت يكون (ريل التلفزيون) فوق سطحه منصوباً باتجاه ايران!

وفي ندوة خاصة عن كيفية ادارة اعمال المحافظة خلال ايام الحرب، قال عضو في قيادة فرع ديالى: ان اميركا تتهمنا باننا صدرنا اليها الجمرة الخبيثة بوساطة الانترنت. واكد انه قادر على اسقاط حكومتي بوش وبلير اذا ما وضعوا تحت تصرفه مؤسسة اعلامية جيدة!

في ليلة الانذار التقى رجال الفقهى الثلاثة.

قال الاول: تهانينا!! لقد انتهى (ويقصد صدام).

قال الثاني: ولكنهم سيحتلون البلد!

قال الاول: لا تخف.. سيخرجون عاجلا او آجلا، ومن دونهم لن يخرج صدام ابداً، وستبقى عائلته تحكم البلد لقرنين من الزمان.

قال الثالث: كم انت متشائم؟

رد الاول: كنت.. الآن لا.

الحرب صارت مؤكدة

كانوا اصدقاء، يجتمعون حول طاولة اسموها طاولة النسيان، مرة او مرتين في الاسبوع من دون ان يكونوا امتنظمين في خلية سياسية ما.. كانوا ينتمون لشريحة المثقفين اولئك الذين يلفظون ويطرحون افكاراً وتساؤلات مريبة.

قال حسن: شرشرتنا هذه التي لا تنقطع تقوض اسس النظام في عقل المجتمع، واذا ما انهار في يوم ما علينا ان نفتخر باننا صنعنا شيئاً له اهميته ومعناه.

أراد ضياء ان يغني.. ضرب على اوتار عوده وتدندن بكلمات مبهمة غير ان النغمة تعثرت في قلق العيون. كان الدخان خانقاً في الغرفة.. امسك صلاح بالراديو الترانزستور وقال: لنسمع مونت كارلو.

لا جديد، سوى ان الحرب صارت مؤكدة.

قال حسن: ماذا لو وقعت الحرب فعلاً.؟

قال ابراهيم: وماذا لو انها لن تقع؟

قال حسن: ايهما افضل: صدام حسين ام الاحتلال؟

قال ابراهيم: كلاهما سيء، إلا اننا نعرف كيف ننهي الاحتلال اما صدام حسين فلا احد بمقدوره ان يتكهن بطريقة انهائه، من غير حرب وتدخل خارجي.

سأل عمر: ولكن كم سيموت منا؟

قال ابو سيروان: تلك هي اللعنة، وتساءل عن الخيارات الاخرى. واضاف، ان المسألة، في هذه الدرة، جدية، واستطيع ان اؤكد لكم انها النهاية.. نهاية الدكتاتورية. قام ابو سيروان بزيارة خاطفة وسرية الى السليمانية واربيل وقد رجع منهما وفي وجهته اشياء كثيرة.. كان الوحيد من بين مثلة الاصدقاء له فاعلية سياسية حقيقية. اختلى بابي حيدر الذي كان عضواً قديماً في الحزب (...) وسجن بسبب انتمائه لهذا الحزب شهور أطويلة.

.رفاقك هناك يسلمون عليك، وحانا يسقط صدام عليك ان تفعل كذا وكذا.

قال له رجل دمشقي: ولكنكم شجعان يا شعب مه

رد عليه: نعم، ولكن لا احد مستعد للدفاع عن النظام القائم.. ان كل شيء سينتهي في غضون شهر او شهرين. حدق الدمشقي بوجهه بمزيج من الغضب والشك، فقال:

.صدقني، وسترى.

المشهد ما قبل الاخير

هبط نساء الاخير حالكاً ومخنوقاً بالتوجس والوحشة.. كان الاصدقاء عند ناصية الطريق عندما توقفت بقربهم سيارة تستقلها عائلة، وعلى سقفها فرش وحقائب وصناديق (اخوان.. منين تطلع لبهر ز؟

.كبل، وبعد لجسر، ويه الشاحة لوف على ليمين)

عندما ابتعدت السيارة قال ابراهيم:

.هؤلاء من بغداد، اكيد.. جاء واهاربين لأنهم يتوقعون الحرب هذه الليلة.

باتت الحرب سؤالاً معلقاً.. افترضنا ضاغطاً يرهص لزمن آخر لا احد بمستطاعه ان يجزم او يتنبأ كيف سيكون.

في تلك الليلة جلس الاصدقاء حول طاولتهم القديمة غارقين في الاسى والغموض.

قال هو: نعم نعم.. بطاريات.. البطاريات لهم في البطاطا.. يجب ان نعرف ما يحصل اولاً بأول.

كان عائد التوه من دمشق.. حكى لزوجته وابنه كيف ان الشاميين هناك كانوا يقولون له: قلوبنا معكم.. وكانوا يسألونه؟ ماذا تتوقع؟ وكانوا يصدمون حين يقول لهم ان رهان صدام الوحيد الآن هو ان يتجنب الحرب، واذا ما وقعت فلن يكون هناك صدام، وسيحتل الاميركان البلد.

قال له: لكن الاميركان لا يريدون احتلال البلد، انهم يريدون ان يخرجوا منه بسرعة.

.ولكن هذا ما يحدث الآن.

قال: ولكن الاميركان يقولون انهم سيبقون في العراق لسنوات طويلة.

.هذا ما يقولونه الآن، ولكن الامر سيتغير بعد الحرب.

قال: ولكن الاميركان يقولون انهم سيبقون في العراق لسنوات طويلة.

.هذا ما يقولونه الآن، ولكن الامر سيتغير بعد الحرب.

قال: ولكن الاميركان يقولون انهم سيبقون في العراق لسنوات طويلة.

.هذا ما يقولونه الآن، ولكن الامر سيتغير بعد الحرب.

خمسة من ضباط الجيش العراقي السابق في تكريت يتحدثون لـ (المدى):

لو كان العسكريون يؤمنون بقيادة صدام لقاتلوا دفاعاً عنه

عبد الزهرة المنشداوي

بماذا يفكر ضباط الجيش السابقون في تكريت الآن، بعد ان القي بهم خارج اسوار هذه المؤسسة اثر القرار الصادر بحلها في ايار الماضي؟ وهل ترودهم الآمال بالعودة في ظروف اخرى؟ وما مدى صحة ما يقال من ان اكثرهم كانوا من الموالين للنظام البائد، وان (صدام) جعلهم سادرين على حراسة كرسيه وسوطاً ألهب به ظهور الشعب؟ وما كانت مواقفهم في الحرب الاخيرة وبعضهم كانوا امرين لوحدات فعالة؟

هذه التساؤلات وغيرها (جابهنا) بها خمسة من الضباط السابقين في محافظة صلاح الدين، كانوا يحملون رتباً مختلفة في صفوف عدة، فجاءت اجاباتهم كالآتي:

كان اول المتحدثين العميد الركن عبد الله حسين جبارة من اهالي مدينة العلم القريبة من تكريت إذ عقب على ذلك قائلاً:

النظام الصدامي البائد وبحكم القوة والاساليب الدموية التي اتبعها اراد ان يحول افراد المؤسسة العسكرية العراقية الى مجموعة من المقلدة لمصلحة نظامه، ولم يدخر جهده في ذلك، حتى انه زرع الضغن بين ابناء الوطن الواحد. كلنا يعلم ان من اولويات مهام العسكريين الحفاظ على وحدة الوطن من اي تهديد خارجي، ولكن صدام بجبروته ودهائه استطاع قلب هذا المفهوم. وكلنا يذكر حرب عام 1991 حينما عمد الى توجيه الجيش وجهة الشعب العراقي كما حدث في بعض المدن العراقية في الجنوب، وخاصة البصرة والعمارة والنجف وكربلاء.

وكلنا يتذكر الاسلوب الخبيث الذي انتهجه في ذلك، إذ اجبر بعض القادة العسكريين على الظهور على شاشة التلفاز وطلب منهم ان يتحدثوا عن (بطولاتهم في "ام المعارك"!). وما كان لهم غير الحديث عن ضرب الشعب خلال انتفاضته وكانت غايته من ذلك ايهام الشعب بان الجيش العراقي يصطف معه.

قسم كبير من العسكريين قاتلوا في الحروب التي ادلعت في العقود الثلاثة الماضية، ولكنهم على ما اعتقد لم يقاتلوا دفاعاً عن صدام بقدر ما كانوا يقاتلون على اساس الدفاع عن الوطن، وهي مهمتهم اولاً واخراً. ولو كان العسكريون يؤمنون بقيادة صدام لقاتلوا دفاعاً عنه وعن نظامه في الحرب الاخيرة، ولكنهم عبروا عن موقفهم من خلال التخلي عنه والانسحاب من القتال بطريقة او باخرى، وحتى الضباط القريبون منه من ابناء عشيرته وعمومته، والكلف اغلبهم بمهام لحماية الشخصية له، لاذوا بالفرار، ولم يجرح احد منهم مجرد جرح في الحرب الاخيرة، لانهم لم يجدوا في شخصه ذلك (القائد) الذي يستحق الدفاع عنه. ليس من الصحيح القول بأن الجيش العراقي كان يلتف حول نظام صدام البائد.

ما زلنا في خدمة الوطن

اما الرائد الطيار مثنى عيسى جاسم فكان له رأي آخر اذ قال:

حينما تطوعنا في المؤسسة العسكرية اول الامر كنا منطلقين من مفهوم اننا نؤدي خدمة شريفة ووطنية، من اولوياتها خدمة الوطن والدفاع عنه، ولم يخطر ببالنا اننا تطوعنا لخدمة نظام او شخص بعينه، سواء كان صدام او غيره. ودليل على ذلك هو اننا لا نزال نتوق الى وضع الخبرات والمهارات التي اكتسبناها في خدمة وطننا فحسب، بغض النظر عن المسميات، ما عدا ان نكون تحت تصرف قوات محتلة فهذا الامر يشين اي عسكري شريف مؤمن بوحدة وطنه واستقلاله.

لماذا الاستغناء عن طاقاتنا الفنية؟

اما العقيد عصام عبد اللطيف السامرائي (اختصاص حاسبات) فلقد تحدث قائلاً:

الجيش العراقي فيه كوادر مهمة وحيوية في مجالات عديدة، والآن يمكن استغلالها في بناء العراق الجديد لبناء دولة حديثة والمعروف ان في الجيش العراقي العديد من الصنوف الاختصاصية العلمية التي يندر وجودها في جيوش الدول المجاورة، ونحن كضباط في صنوف فنية بحتة لا نرى ثمة علاقة بيننا وبين نظام صدام مما اقدمناه من برامج اعددناها للحاسبات والرواتب، وبناء قواعد رصينة للافراد. وان مسألة الاستغناء عن خدماتنا هي هدر للطاقات والجهود التي يمكن ان تسهم في بناء العراق من جديد. هذا اذا علمنا بان هناك كوادر علمية متخصصة صرفت في سبيل تدريبها، واعدادها اموال طائلة، من خلال اشراكها في دورات ودراسات في مختلف انحاء العالم. وهؤلاء الآن بعيدون عن اي دور. وهذا يترك اثاراً سلبية عليهم، خاصة وانهم يعيشون تحت وطأة الحاجة، وباعتقادي لو انه تحل المؤسسة العسكرية العراقية لكان لها الآن دور متميز وفعال في حفظ الامن وحراسة الحدود التي هي الآن مفتوحة على مصراعيها لأناس لا يهمهم سوى اشاعة الفوضى وزرع الضغن بين ابناء البلد الواحد.

ان حل الجيش العراقي الحق الضرر الكبير بالعراق.

الولاء للوطن

بينما تحدث العقيد الركن هيثم فارس عبد الله من قضاء بيجي لمراسل المدى قائلاً:

ولاؤنا للوطن اولاً واخيراً، ونحن جنود مأمورون. واستهجن القول بأن ولاءنا كان للنظام البائد، ولا اخفي القول بأننا فتحنا اعيننا وصدام في الحكم، وقد استدرج الكثير منا وبطريقة او بأخرى وبأساليب مخادعة، فمثلاً ان من لم يكن منتمياً لحزب البعث لا يتمتع بأي مزية عسكرية تذكر، ويكون عرضة للشبهات والاحالة الى التقاعد، او انه لا يحظى بما يحظى به الضابط المنتمي من ترفيعات ورتب اضافية و(مكارم) او اي شيء من هذا القبيل. فاضطر الكثيرون من الضباط الى الانضمام لصفوف حزب البعث لا عن قناعة، بل للحفاظ على حقوقهم ليس إلا، وكنت من هذه الفئة التي كان يعني لها الجيش العراقي مدرسة تعد المتقاعدين في حماية وحدة الوطن والحفاظ على استقلاله والدفاع عنه ضد اي تهديد خارجي. هذه هي ميادين المدرسة التي امتاز بها فتخرطنا على ضوئها في صفوف الجيش العراقي، وانا بصفة شخصية كضابط برتبة عقيد ركن وصفت بكوني من الموالين للنظام البائد هذا الآن، حاصل على درجة عضو فرقة في حزب البعث المنحل، وقد ذكرت لك بأني انتميت للجيش العراقي وكان احد الشروط للقبول في الجيش الانتماء للبعث، فانتميت من اجل الخدمة في الجيش، لا من اجل البعث وصدام.

وعن موقفه في حالة الطلب منه العودة الى الجيش ثانية وفي ظل الظروف الراهنة قال:

مع افتراض هذا الامر افترضاً فانني اقول، ان عودتي سوف تكون مرهونة بوجود حكومة وطنية مستقلة لاغبار على ولائها للوطن.

ومن خلالها وحدها يمكن ان اساهم من اجل فرض النظام وحماية البلاد من الدخلاء وخاصة الارهابيين منهم. واخر الامر يمكن القول بأن ولاءنا مرهون بالوطن وليس لجماعة او نظام او شخص بعينه، وهنا يجب ان ننوه ان القتال ضد الاميركان كان قد وضعنا في محنة حقيقية، فالذي يتصدى لهم سيحسب على الفئة التي يهمها استمرار صدام في الحكم.

وهكذا تجد البعض قاتل والبعض آثر الانسحاب. والذي قاتل لم يقاتل دفاعاً عن صدام بقدر ما دافع من منطلق ان هناك جيشاً اجنبياً محتلاً يريد احتياح بلاده ليس إلا.

محنة الطيارين

وكان للمقدم الطيار عبد الرحمن مجيد آراؤه في هذا الشأن اذ تحدث قائلاً:

لا اخفي عليك بأنني كنت على اتم الاستعداد من موقعي كعسكري للقتال، ولكن في سبيل الوطن وعلى ضوء ما تعلمته من مدرسة الجيش العراقية، ولم تحب اسوة بالضباط الآخرين الذين تحبوا الكي لا يقال بأنهم دافعوا عن كرسي صدام وكانت لهم في ذلك مبررات لا سبيل الى ذكرها، اما من جهتي فلم يكن صدام يعني لي حينها شيئاً بقدر ما كان يعنيني الدفاع عن الوطن في كافة الاحوال والظروف، وهو الشرف الذي ما بعده شرف، وهذا ما تربيت عليه وانا بعد طفلاً صغيراً لهذا اثرت البقاء في موقعي، وكانت القوات الاحتلال قد احتاجت جزءاً كبيراً من الاراضي العراقية، اظنني ان (الضباط العسكرية) سوف تسندني مهمة بصفتي طياراً حربياً بين لحظة وأخرى، وليس من اللائق ان لا تجدني، ولا اخفي عليك نحن كطيارين بذلنا جهوداً مضنية وساعات طويلة في التدريب على اساس خوض معركة جوية مع قوات الاحتلال، وكنت حينها انتسب الى قاعدة البكر في اطراف محافظة صلاح الدين، وبلغنا في التدريب شوطاً بعيداً عن كيفية التجابهة من خلال الطيران العالي، وتحدثت بذلك ظهورنا من كثرة التدريب. ولكن الذي حدث انه لم تكلف من قبل قادتنا بأية مهمة دفاعية ولا هجومية. وبقيت طائرتنا جاثمة في وكارها بينما لقد كان الامر بالنسبة لنا هو الدفاع عن الوطن، ولم يكن يخطر ببالنا الدفاع عن نظام او شخص مطلقاً، ولا اخفي عليك بأن الحزن يعتري الكثير منا حيث وجدنا فضلنا آخر الامر وبعد حل الجيش العراقي تشبه بالاسماك التي تعيش خارج مياهها، فنحن لا نجيد الآن غير ما تعلمناه في السابق، ولا يمكننا رسم حياتنا من جديد. وهذه الشكاية بالنسبة لنا لشعرنا وكأننا بلا فائدة بعد الآن، وهذا ما يخض مضاجعنا وارجو من مجلس الحكم العراقي ان يأخذ هذه المسألة في الحسبان.

مبادرة لجنة شجاعة

رئيس لجنة شؤون العسكريين في مركز محافظة صلاح الدين تحدث عن مهام هذه اللجنة، وما قدمته بهذا الصدد، فقال:

ان اعداد العسكريين في محافظة صلاح الدين وحدها تزيد على (13) الف عسكري وجدوا انفسهم في دوامة بعد صدور قرار حل الجيش العراقي، وبوساطة هذه اللجنة تم احتواء الجميع فقد صرفت لهم رواتبهم كاملة قبل غيرهم من بقية المحافظات ومن اموال خزينة المحافظة، وحتى قبل ان تصرف في بغداد العاصمة نفسها، يضاف الى ذلك انه تم توظيف الكثير من الضباط في اجهزة الشرطة او لجهات ذات العلاقة، ونحن بصدد حل العديد من المشاكل التي نجمت عن حل الجيش العراقي، منها، ان بعض العسكريين لدينا لم تصرف لهم رواتبهم لحد الآن ولكننا في سبيل صرف رواتبهم في الايام القليلة القادمة.

لقد بدت لكثير من العسكريين استعدادهم للعمل من اجل فرض النظام والذهاب الى نقاط الحدود من اجل توفير امن العراق، ولكن هذا الامر بالتأكيد لن يتحقق دون وجود سلطة وطنية في البلاد.